مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية **المجلد الثالث والعشرون، العدد الثاني، 89–110 يونيو 2015**
IUGJIS **ISSN 2410-5201**

تدبر القرآن الكريم
آدابه وضوابطه المنهجية

د. محمود هاشم عنبر[1،*]

[1]قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، قطاع غزة، فلسطين

تاريخ الإرسال (2015/03/02)، تاريخ قبول النشر (2015/05/13)

ملخص البحث

يتحدث البحث حول موضوع قرآني بعنوان: **(تدبر القرآن الكريم – آدابه وضوابطه المنهجية)**، وقد اشتمل البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

تحدث الباحث في المقدمة حول أهمية تدبر القرآن في تطبيق القرآن واقعًا في الحياة وأثره على حاضر الأمة ومستقبلها.

وتحدث في المبحث الأول حول المعاني اللغوية والاصطلاحية للتدبر، وورود لفظة التدبر ومشتقاتها ونظائرها في السياق القرآني.

وتحدث الباحث في المبحث الثاني حول الآداب التي يجب أن يتحلى بها المتدبر لكتاب الله، وتحدث في المبحث الثالث حول الضوابط المنهجية للتدبر.

وختم البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: تدبر القرآن، آداب التدبر، ضوابط التدبر.

Meditation of the Koran - Etiquette and Controls Methodology

Abstract

The research talking about the Quranic subject entitled: (meditation of the Koran - etiquette and controls methodology), has included research on the front, and three sections, and a conclusion.

Researcher occur in the introduction about the importance of managing the Koran in the application of the Koran and the reality of life and its impact on the present and future of the nation.

He spoke in the first section on language and idiomatic meanings for reflection, and the receipt of the word forethought and derivatives and analogues in Quranic context.

He spoke a researcher at the second topic on the conduct, which must be displayed by minded to the Book of Allah, and occur in the third section approximately methodology controls for management.

Finally conclusion included the most important findings and recommendations.

Keywords: Meditation the Koran, Manner of Meditation, Restriction of Meditation.

---

[*] البريد الالكتروني للباحث المرسل: manber@iugaza.edu.ps

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد:

فالقرآن الكريم هو دستور الأمة، ومصدر عزتها وكرامتها، ورفعتها ونهضتها، ما تمسك به قوم إلا عزوا وسعدوا، وما أعرض عنه قوم إلا هانوا وذلوا، رفع الله به أمة الإسلام بين الأمم فكانت خير أمة أخرجت للناس كما قال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ... ﴾ (آل عمران: ١١٠)، لما تمسك المسلمون بتعاليم القرآن واعتزوا بأحكامه نعموا بأوامره ونواهيه وسعدوا بتوجيهاته وأخلاقه فكانوا سادة الإنسانية وقادة البشرية وامتلكوا دولة لا تغيب عنها الشمس.

لقد تعبدنا الله بهذا القرآن فجعل تلاوته عبادة، فقال سبحانه: ﴿ ...وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: ٤)، كما مدح الله سبحانه الذين يتدبرون آياته ويتلونه حق تلاوته، وشهد لهم بالإيمان قائلاً: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ ... ﴾ (البقرة: ١٢١).

وتلاوة القرآن حق تلاوته لا تكون إلا بتدبره والتفاعل مع آياته مع شعور القارئ أو المستمع أنه مخاطب بكل آية يقرئها أو يسمعها، فيخشع معها القلب، وينشرح الصدر، وتسكن الجوارح، وتقشعر الجلود والأبدان، لينطلق المؤمن من عالم السمع والطاعة إلى الخضوع والإذعان ويجمع بين التلاوة والتدبر والتطبيق والامتثال ويترجم القرآن واقعاً في حياته ليكون قرآناً يمشي على الأرض سيرًا على خطى حبيبنا وقدوتنا محمد ﷺ واقتداءً به وامتثالاً لأمر الله أيضًا حيث قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ، ويقول أيضًا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

ولو نظرنا إلى أحوال المسلمين اليوم لوجدنا أن الأمة تمر بحالة من الضعف والذلة والمهانة لا بسبب بعد المسلمين عن تلاوة القرآن بل بسبب عدم تدبره، لأنَّ عدم التدبر يفضي إلى تعطيل أحكامه وعدم تطبيقها في واقع الحياة.

لذا أردت الكتابة في هذا الموضوع الهام والذي بعنوان: "تدبر القرآن الكريم آدابه وضوابطه المنهجية" حيث سيرسخ هذا الموضوع الآداب التي يجب أن يتحلى بها القارئ المتدبر والضوابط المنهجية التي يجب أن تتوفر لتحقيق التدبر وذلك في إطار دراسة تفسيرية قرآنية محكَّمة.

وقد جعل الباحث البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: التدبر بين المعاني اللغوية والاصطلاحية والسياق القرآني.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التدبر لغةً واصطلاحًا.

أولاً: التدبر في اللغة.

ثانيًا: التدبر في الاصطلاح.

ثالثاً: العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية.

المطلب الثاني: التدبر ومشتقاته في السياق القرآني.

أولاً: في الآيات المكية.

ثانيًا: في الآيات المدنية.

المطلب الثالث: نظائر التدبر في السياق القرآني.

أولاً: التبصر.

ثانيًا: التفكر.

ثالثًا: النظر والتأمل.

رابعًا: الاعتبار.

المبحث الثاني: **آداب التدبر.**

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: إخلاص التلاوة لله وترك المعاصي.

المطلب الثاني: الاستعاذة عند التلاوة.

المطلب الثالث: خشوع القلب.

المطلب الرابع: الجمع بين التلاوة والعمل.

المبحث الثالث: الضوابط المنهجية لتدبر القرآن الكريم.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: حسن الاستماع والإنصات.

المطلب الثاني: ترتيل القرآن بصوت حسن.

المطلب الثالث: العيش في رحاب القرآن.

المطلب الرابع: فهم النص القرآني وفق مراحل وأسباب نزوله.

المطلب الخامس: فهم الأسرار البلاغية للغة والقرآن.

المطلب السادس: فهم موضوع السورة ومناسبات آياتها.

المطلب السابع: تصور حال الدعوة عند نزول الآيات.

الخاتمة: وقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: التدبر بين المعاني اللغوية والاصطلاحية والسياق القرآني

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التدبر لغةً واصطلاحًا

أولًا: التدبر لغةً:

التدبر هو النظر في عاقبة الأمر والتفكر فيه(1)، وتدبر الكلام النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، ولهذا جاء على وزن التفعيل كالتجرُّع والتفهم والتبيُّن، ولذلك قيل إنه مشتق من النظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول(2)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

ثانيًا: التدبر في الاصطلاح:

تقاربت تعريفات التدبر في الاصطلاح عند العلماء وذلك على النحو التالي:

1- يعرفه الإمام الحافظ ابن كثير بقوله: "هو تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة"(3).
2- ويعرفه الإمام القرطبي والشوكاني بأنه: "التفكر في عاقبة الشيء وتأمله والتدبير أن يدبر الإنسان أمره وكأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته"(4).
3- ويقول الإمام النسفي: "والتدبر هو التأمل والنظر في أدبار الأمر وما يؤول إليه في عاقبته ثم استعمل في كل تأمل" (5).
4- ويعرفه الميداني بقوله: "التدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"(6).

وبالنظر في التعريفات السابقة يلاحظ الباحث أنها تعريفات عامة في كل تدبر ولم يعرف أصحابها التدبر القرآني في الاصطلاح، وقد اجتهد الباحث في وضع تعريف لتدبر القرآن يراه ضابطاً وحاصراً وجامعاً وهو: (تلاوة القرآن الكريم بتفكر وتأمل وتؤدة لفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة واستشعار دلالات كلام الله وفهم مراده والعمل بما فيه لتؤتي التلاوة ثمارها).

ويستفاد مما سبق أن تدبر القرآن يشمل أمورًا ثلاثة:

1- معرفة معاني الألفاظ ومراد الله منها.
2- اعتبار العقل بحججه وتحرك القلب ببشائره وزواجره.
3- الخضوع لأوامره واليقين بأخباره(7).

---

(1) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج4، ص273، والفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص121.

(2) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص216.

(3) تفسير القرآن العظيم، ج1، ص529.

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص290، وفتح القدير، ج1، ص491.

(5) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج1، ص268.

(6) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حبنكة، ص 10.

(7) انظر: تدبر القرآن الكريم، تأليف سلمان بن عمر السنيدي، ص12.

ثالثاً: العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية:

بالنظر إلى المعاني اللغوية للتدبر لاحظ الباحث أنها محصورة في معنى النظر في أول الكلام وآخره والتفكر في عاقبة الأمر.

في حين أن المعاني الاصطلاحية للتدبر جاءت بمفهوم أوسع وأشمل فهي بمعنى تفهم معاني الكلام وألفاظه والتفكر في عاقبة الشيء وما يصير إليه والنظر في أدبار الأمور والتأمل فيها والتفكر في دلالات الكلم ومراميه البعيدة.

ومن هنا تظهر العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية حيث إن المعاني الاصطلاحية أعمُّ وأشمل من المعاني اللغوية وأن المعاني اللغوية تمثل جانباً من المعاني الاصطلاحية.

المطلب الثاني: التدبر ومشتقاته في السياق القرآني:

وردت لفظة التدبر والتي بمعنى التفكر والتأمل في السياق القرآني في أربعة آيات من آيات القرآن الكريم اثنتان منها مكيتان واثنتان مدنيتان.

أولاً: في الآيات المكية: وردت لفظة التدبر ومشتقاتها في سياق الآيات المكية في:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

ثانياً: في الآيات المدنية: وردت لفظة التدبر ومشتقاتها في سياق الآيات المدنية في:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

المطلب الثالث: نظائر التدبر في السياق القرآني:

من نظائر التدبر في السياق القرآني والألفاظ المقاربة لها ما يلي:

أولًا: التبصر: وقد وردت في سياق الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿ ...فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٨).

وقوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٨).

وقوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ (القلم: ٥).

ثانيًا: التفكر: وقد ورد هذا المعنى في سياق الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿ ... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ ... ﴾ (البقرة: ٢١٩ – ٢٢٠).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وقوله تعالى: ﴿ ... وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١).

ثالثًا: النظر والتأمل: وقد ورد هذا المعنى في سياق الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ * ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك: ٣ – ٤).

وقوله تعالى: حكاية عن إبراهيم عليه السلام وهو ينظر في الكون ويتأمل في عظيم مخلوقات الله ليثبت لقومه بطلان ما عليه من عبادات وآلهة وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٤ – ٧٩).

رابعًا: الاعتبار: وقد ورد التدبر مقارباً لمعنى الاعتبار في الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ...﴾ (يوسف: ١١١).

وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (النور: ٤٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ (النازعات: ٢٦).

فهذه نظائر التدبر والمعاني المقاربة لها وقد ذكرت بعض آياتها على سبيل الأمثلة لا الحصر.

المبحث الثاني: آداب التدبر

قراءة القرآن عبادة تعبدنا الله سبحانه وتعالى بها وهي من أفضل القربات وأعظمها بركة وأجلِّها نفعًا، بها ترقق القلوب وتزال الهموم وتكشف الغموم وتنشرح الصدور وبها يعظم الأجر ويتضاعف الثواب وترفع الدرجات والناس يتفاوتون في حصول الأجر بقدر خشوعهم وتدبرهم لكتاب الله وهذا التدبر لابد أن يصاحبه آداب يتأدب بها القارئ لحصول هذه الثمرات العظيمة أذكر بعضها خلال هذه المطالب:

المطلب الأول: إخلاص التلاوة لله وترك المعاصي:

يجب على قارئ القرآن أن يخلص عمله لله سبحانه وتعالى فقراءة القرآن عبادة كغيرها من العبادات لا بد من إخلاص النية فيها لله لتكون خالصة لوجهه لا يبتغي العبد منها إلا مرضاته ودخول جنته ولا يبتغي من قراءته شيئًا من حطام الدنيا فعلى المتدبر أن يدين بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده وإن لم يدن بذلك كان عمله باطلاً محبطًا⁽¹⁾، كما يقول سبحانه: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

الخطاب هنا للنبي ﷺ والمراد به أمته إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه الإشراك، ولما كانت التلاوة من العبادات التي قد يقصد بها العبد أحياناً مراءاة الناس ومدحهم له وثنائهم عليه غير ملتفت إلى ثواب الله

---

(1) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص17.

فقد تدخل ضمن الأعمال المحبطة بالرياء والسمعة ويقصد بالإحباط الإبطال والإفساد(1).

كما أن قارئ القرآن مطالب بهذه العبادة أن يخلص العمل والنية لله انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥)، فقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي العبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١) ، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله لا غيره (2).

ويجب على قارئ القرآن أن يكون بعيدًا عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وذلك لأن تلك المعاصي والذنوب تحول دون التدبر وتنكت في القلوب نكتاً سوداء فإذا تكررت يصدأ القلب ويختم عليه بحيث لا ينتفع صاحبه بنصيحة ولا تؤثر فيه موعظة وبالتالي لا يتأثر بقراءة القرآن وفي ذلك يقول ابن قدامة المقدسي رحمه الله: "من موانع فهم القرآن الكريم وتدبره أن يكون القارئ للقرآن أو المستمع له مصرًا على معصية أو متصفًا بكبر أو مبتلى بهوى فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدأه فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة"(3).

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ... ﴾ (الأعراف: ١٤٦)، فعلى قارئ القرآن المتدبر في قراءته أن يتحلى بالتقوى والورع وعدم الرياء والنفاق وأن يترفع عن متاع الدنيا إجلالًا للقرآن يقول عمر ﷺ: (يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالًا على الناس) (4).

وروي عن الفضل بن عياض قوله: "حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن" (5).

وبهذا يتبين لنا أن المتدبر للقرآن لا بد أن يجمع عددًا من الخصال كتقوى الله والورع وعدم الرياء وأن يبتعد عن المعاصي ليكون عمله وعبادته وتلاوته خالصة لوجه الله الكريم.

المطلب الثاني: الاستعاذة عند التلاوة:

فمن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المتدبر لكتاب الله الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم كما يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨) ، فالاستعاذة تنقي القلب مما يلقي الشيطان من الشرور والغرور.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج15، ص265، بتصرف.

(2) انظر: المرجع السابق، ج20، ص143.

(3) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ص67-68.

(4) التبيان في آداب جملة القرآن، للإمام النووي، ص53.

(5) الحلية، لأبي نعيم، ج2، ص192.

فقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يعني فإذا أردت قراءة القرآن "فاستعذ بالله" فعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأنها سبب له والفاء للتعقيب إذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور وقوله ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ يعني إبليس المطرود من رحمة الله أو الملعون(1).

ولما ذكر الله ﷻ في الآية السابقة العمل الصالح ووعد عليه وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)، وصل به قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨)، إيذانًا بأن الاستعاذة من الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب والمعنى فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ... ﴾ (المائدة: ٦) (2).

ويقول الإمام الرازي: "الشيطان ساع في إلقاء الوسوسة في القلب حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ... ﴾ (الحج: ٥٢)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١) فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة" (3)، وهو خطاب لكل مؤمن يتلو كتاب الله متدبرًا خاشعًا.

فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أدب من آداب التلاوة والتدبر أثناءها، وهي تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله وتطهير له من الوسوسة واتجاه المشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان(4).

المطلب الثالث: خشوع القلب:

من الآداب التي يجب أن يتحلى بها القارئ لكتاب الله خشوع القلب أثناء التلاوة وخشوع القلب هو ذلته وسكونه لله فبالخشوع تسمو الروح وتذرف الدموع وتتأثر الجوارح وتذل النفس لخالقها وتخضع لبارئها ويورث ذلك خشوع الظاهر، فبالقلب حاجة لا يسدُّها إلا ذكر الله، ووحشة لا يزيلها إلا الأنس بهذا القرآن لذلك ينبغي للقارئ المتدبر أن يكون خاشعًا في قراءته خاضعاً لربه ليستنير قلبه ويحصل تدبره لذلك تحدث القرآن عن قلوب الخاشعين ووصف حالهم عند قراءة القرآن أو سماعه حيث يقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣).

---

(1) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي، ج1، ص695.

(2) انظر: الكشاف، للزمخشري، ج2، ص609.

(3) التفسير الكبير، م10، ج20، ص117.

(4) انظر: في ظلال القرآن، ج4، ص2194.

ففي هذه الآية الكريمة نعت لأولياء الله المحافظين على تلاوة القرآن بقلوب خاشعة وصدور مطمئنة حيث نعتهم بأنها تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله وهذا وصف لما يحصل عند سماعه من التأثر، والاقشعرار بمعنى التقبض يقال اقشعر جلده إذا تقبض وتجمع من الخوف والمعنى تأخذهم قشعريرة عند سماعه(1).

وقد اقتضى قوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أن القرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود وهي المعاني الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره وكنى عن ذلك بحالة تقارن انفعال الخشية والرهبة في النفس لأن الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعر جلده من أثر الانفعال، والمؤمن لا تزال روعة القرآن وهيبته أثناء تلاوته تكسبه انجذاباً وهشاشة لميل قلبه إليه حتى يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله وهذا اللين هو ضد القساوة التي يشعر بها الكفار والتي وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢).

فإن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربه ويتجنب ما حذر منه فيقشعر جلده فإذا عقب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمئنت نفسه وانقلب الوجل والخوف إلى رجاء، فذلك معنى لين القلوب، ويبعث هذا اللين في القلوب ما في القرآن من معاني الرحمة والرقة وقد علم في فن الخطاب أن للجزالة مقاساتها وللسهولة والرقة مقاماتها(2).

ويضيف ابن عاشور قائلاً: "أعجوبة جمعه بين التأثيرين المتضادين: مرة بتأثير الرهبة ومرة بتأثير الرغبة ليكون المسلمون في معاملة ربهم جارين على ما يقتضيه ﷻ وما يقتضيه حكمه ورحمته وهذه الجهة اقتضاها الجمع بين الجهتين المصرح بهما وهما جهة القشعريرة وجهة اللين مع كون الموصوف بالأمرين فريقًا واحدًا وهم الذين يخشون ربهم والمقصود وصفهم بالتأثرين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة"(3).

فهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى القرآن فتنشرح له وتندى به وتصور حالها مع الله حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة تصور هيئة تلقي المؤمنين للقرآن كيف يخشون ربهم ويتقونه ويعيشون في حذر وخشية وفي تطلع ورجاء يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود ثم تهدأ نفوسهم وتأنس قلوبهم بهذا الذكر فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله وهي صورة حية حساسة ترسمها الكلمات فتكاد تشخص فيها الحركات وهذه القلوب لا ترتعش هكذا إلا حين يحركها الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراف فلله درٌّ هذه القلوب ودرٌّ أصحابها(4).

وهذا هو رسولنا الكريم ﷺ كان يخشع قلبه وتذرف عيناه بالدموع عند سماعه للقرآن الكريم، يقول ابن مسعود ﷺ قال لي النبي ﷺ يوماً يا ابن مسعود اقرأ علي القرآن فقلت له أأقرأ عليك يا رسول الله وعليك أنزل فقال: (إني

---

(1) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج4، ص459.

(2) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، م11، ج23، ص389-390.

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور، م11، ص23، ص290.

(4) انظر: في ظلال القرآن، ج5، ص3048.

أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١)، فأشار إلى أن أكف عن القراءة فنظرت إلى عينيه وإذا بهما تذرفان)(1).

يقول ابن بطال: "إنما بكى ﷺ عند تلاوته لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته إلى أمته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف وهو أمر يحق له طول البكاء"(2).

وكذلك خشعت قلوب السلف الصالح، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت كان أصحاب النبي ﷺ إذا قرئ القرآن الكريم تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم(3)، وقد أثر عن أبي بكر ﵁ أنه كان رجلاً رقيقًا إذا قرئ القرآن لا يملك دمعة (4).

وأخيراً يمكن القول أن الخشوع يحتاج إلى علم لذلك نجد العلماء أكثر الناس خشوعًا وخشيةً لله لأنهم عرفوا الله فخشوه وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨)، فكثرة البكاء وخشوع القلب وسرعة التأثر بالقرآن لا يكون إلا بتدبر القرآن وهي صفات تدل على صفاء القلب وحسن السريرة وقبول العمل وحب الله ﷻ وحب كتابه.

المطلب الرابع: الجمع بين التلاوة والعمل:

من الآداب التي يجب أن يتحلى بها القارئ لكتاب الله والمتدبر لآياته أن يجمع بين التلاوة والعمل، فالعمل والتطبيق ثمرة من ثمرات التدبر ونتيجة له وقد ذم الله ﷻ الذين يقولون ما لا يفعلون حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢ – ٣)، فيجب على حامل القرآن أن يطابق حفظه لعمله ولا يخالفه حتى يجد قبولًا عند الناس ويكون قدوة حسنة لهم لأن الناس ينفرون ممن يتلو كتاب الله ولا يعمل به.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبًا، وأما في المستقبل فيكون خلفًا وكلاهما مذموم، وأما قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فمعناه: قولكم ما لا تفعلون مذموم(5).

ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وفي الآية دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه والمعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتًا عند الله، واختير

---

(1) صحيح البخاري، ج4، ص1925، حديث رقم 4582.

(2) زاد المعاد، لابن القيم، ج1، ص183.

(3) المرجع السابق، ج1، ص183.

(4) صحيح مسلم، حديث رقم 418.

(5) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج18، ص78.

لفظ المقت لأنه أشد البغض، وعن بعض السلف أنه قيل له: أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل فاستعجل مقت الله(1)، قال ابن القيم رحمه الله: "ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه"(2).

ويقول السيوطي: "أن ينشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به فيعرف كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ أو دعاء تضرع وطلب"(3).

فالآيتان المذكورتان ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم وهما تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون، فالإسلام يريد من المؤمن أن يبني شخصيته على الصدق والاستقامة وأن يكون باطنه كظاهره، وأن يطابق فعله قوله(4).

وحتى تتضح الصورة بجلاء فالعلاقة بين هذه الآية وأدب التدبر أن التدبر يقتضي ويفضي أن يطبق القرآن واقعًا في الحياة، ويجسد أخلاقًا في المعاملة والسلوك وتطبيق المرء ما يقرأ من القرآن واقعًا دليل على أن القراءة قد صاحبها تدبر ترتب عليه عمل وسلوك، وأما الذين يفصلون بين القول والعمل فتلاوتهم خالية من ثمراتها وهي ثمرة التطبيق والذي يعدُّ نتيجة طبيعية للتدبر والتأمل والتفكر.

المبحث الثالث: الضوابط المنهجية لتدبر في القرآن الكريم

لتدبر القرآن ضوابط منهجية تعين على فهم القرآن الكريم وتطبيقه وبالتالي تساعد المتدبر أن يقدم لنا تفسيرًا واضحًا سهلاً ميسرًا يفهمه كل من سمعه ويستوعبه كل من قرأه وسيذكر الباحث بعض هذه الضوابط من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حسن الاستماع والإنصات:

من أهم الضوابط لتدبر القرآن الكريم حسن الاستماع والإنصات وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزهري وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب وغيرهم: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى في مكة فيقول بعضهم لبعض: "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فأنزل الله جلَّ وعز جوابًا لهم: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) (5)، ومعنى: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ أي اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه والإنصات: السكون السكون للاستماع والإصغاء"(6).

وهذا الخطاب شامل للكفار على وجه التبليغ وللمسلمين على وجه الإرشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه، أو أريد المسلمون تصريحًا والمشركون تعريضًا.

---

(1) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج2، ص678-679.

(2) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص215.

(3) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ج1، ص140.

(4) انظر: في ظلال القرآن، ج6، ص3553.

(5) انظر: أسباب النزول، للواحدي، ص172.

(6) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج7، ص337.

فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال في الاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين(1).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "الناس ثلاثة: الأول: رجل قلبه ميت، والثاني له قلب حيّ، والثالث حيٌّ القلب مستعد، إذا تليت عليه الآيات أصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع فهو شاهد القلب، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات"(2).

ويقول الزركشي: "أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر فإذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، ملقيًا السمع وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرًا إلى قدرته، معظماً للمتكلم، مفتقرًا إلى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وقوة علم، وتمكن سمع لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب، بدعاء تضرع، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم وليستعن على ذلك بأن تكون تلاوته على معاني الكلام(3)، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٢١) ، فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عباراته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه"(4).

وأيضًا على متدبر القرآن أن يقرأه جهرًا ويبين الإمام النووي الحكمة من مشروعية الجهر فيقول: "أنه يتعدى نفعه إلى غيره ويوقظ القلب ويجمع همَّه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه(5)، إنَّ الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانًا في النفس حين تستمع لها وتنصت أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة مما الا يدركه إلا من ذاقه وعرفه، وإن العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنيم لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ومن الحرارة والحيوية والانطلاق ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا يدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب، وإن رؤية حقائق الوجود من خلال التصوير القرآني وحقائق الحياة ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية، لهي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة تهدي إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى غير ما توجه إليه سائر التصورات والتقريرات البشرية"(6).

المطلب الثاني: ترتيل القرآن بصوت حسن:

فمن الضوابط المنهجية لتدبر القرآن أن يرتل القرآن ترتيلًا بصوت حسن يبعث السكينة والخشوع في القلب ويستنهض الأركان للطاعات والعبادات ويدفع المرء إلى السمع والطاعة والخضوع والإذعان وترتيل القرآن ترتيلًا

---

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، م5، ج9، ص239.

(2) مدارج السالكين، ج1، ص442.

(3) البرهان في علوم القرآن، ج2، ص197.

(4) الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص2.

(5) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص76.

(6) في ظلال القرآن، ج3، ص1425-1426.

هو أمر رباني أمر عباده به فقال: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ (المزمل: ٤)، والأمر بترتيل القرآن موجه إلى النبي ﷺ وهو خطاب لكل فرد من أفراد الأمة في حياته وبعد مماته وقد نزل هذا التوجيه الإلهي مع بداية نزول القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ (المزمل: ١ - ٤)، فقوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني وقال الضحاك: اقرأه حرفًا حرفًا(1).

ويقول الزجاج: "رتل القرآن ترتيلًا معناه بينه تبيينًا، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن إنما يتم بأن يتبين جميع الحروف ويوفي حقها من الإشباع"(2).

ويقول الإمام الرازي: "واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة قيام الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها فعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمر عليه بسرعة فيظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة"(3).

والترتيل في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بقيام الليل أي رتل قراءتك في القيام، ويجوز أمرًا مستقلاً بكيفية قراءة القرآن جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل وهذا أولى لأن القراءة في الصلاة تدخل في ذلك، والترتيل جعل الشيء مرتلاً أي مفرقًا، وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع، وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم (4).

ولا بد لقارئ القرآن أن يحسن صوته به أثناء التلاوة فالصوت الحسن يظهر حسن القرآن ويبرز فصاحته وبلاغته مما يحقق الخشوع والخضوع والتدبر وفي هذا المعنى يقول ابن كثير رحمه الله: "المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة"(5). وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: (أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيته أنه يخشى الله ...)(6)، وقد بين النبي ﷺ منزلة الماهر بالقرآن تلاوة وصوتاً، فقال: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع الكرام السفرة)(7)، وقد استحقوا هذه المنزلة حين رتلوا القرآن ترتيلاً وحسنوا أصواتهم فكانوا مهرة بتلاوته.

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج19، ص38.

(2) التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، م15، ج30، ص174.

(3) المرجع السابق، م15، ج30، ص175.

(4) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، م14، ج29، ص260.

(5) فضائل القرآن، ج1، ص114.

(6) مصنف بن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبة الكوفي، ج6، ص119.

(7) صحيح الجامع، ج1، ص100، حديث رقم 94.

المطلب الثالث: العيش في رحاب القرآن:

من أعظم الضوابط المنهجية للتدبر أن يتعايش القارئ مع القرآن الكريم بقلبه ووجدانه وروحه وعاطفته، ويتمثل القرآن الكريم في جميع شئون حياته وسائر أحواله فيجعل بذلك خلقه قرآنًا مقتديًا بحبيبنا وقدوتنا محمد ﷺ حيث سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: (كان خلقه القرآن)⁽¹⁾.

لقد كان النبي ﷺ يعيش مع القرآن حتى كان له نور دربه وزاد طريقه ومنهاج حياته فالعيش مع القرآن الكريم من أعظم السبل إلى فهم أحكامه والوقوف على معانيه وإدراك أحكامه ومقاصده وهذه كلها سبيل لزيادة الإيمان والارتقاء بالمؤمن إلى الدرجات العلا وقيادته إلى حسن التوكل على الله والثقة به جلَّ في علاه يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢)، وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره ونظير هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: ٣٤ – ٣٥)، فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته هكذا كانت حال رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ أي تصديقًا، فإيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أمس، وقيل هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة.

ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٣)، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم فمن كان مستناً فليستن⁽²⁾.

ولقد بين الله ﷻ أن القرآن بآياته وأحكامه قد تتأثر به الجبال الشامخات والمخلوقات العظام ولو نزل عليها هذا القرآن لتعايشت معه وتصدعت وخشعت متأثرة من خشية الله وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١) ، لذلك على من قرأ القرآن أن يعايشه بروحه وجوارحه وأركانه وخلجاته وبمشاعره ووجدانه عند ذلك تتجلى الحقيقة وتتفجر ينابيع المعاني والمعرفة، يقول ابن القيم رحمه الله: "إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من يتكلم به سبحانه منه إليه ..."⁽³⁾، فالتعايش مع القرآن يحتاج إلى صفاء القلب والنفس، وتفرغ القلب من هموم الدنيا ومشاغلها وهي وسيلة من وسائل التعايش فهذا عثمان بن عفان ﵁ فيقول: "لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا"⁽⁴⁾، وقد استشهد عثمان ﵁ والمصحف بين يديه فكان كتاب الله آخر عهده بالدنيا.

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج1، ص91، وقال شعيب الأرناؤوط حديث صحيح.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج7، ص349-350.

(3) الفوائد، لابن القيم، ص3.

(4) شعب الإيمان، للبيهقي، ج2، ص209.

لقد ذم الله ﷾ وتوعد الذين عطلوا أسماعهم عن سماع القرآن وعطلوا أفهامهم عن فهمه وعطلوا جوارحهم عن تنفيذ تعليماته وتوجيهاته فقال جلَّ في علاه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٧)، ويقول أيضًا: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٥) ويقول أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

فهنيئاً لمن تعايش مع القرآن وانتفع بثوابه وتدبر آياته، وعمل بما أمر به مولاه ونهى عنه فازداد إيمانًا وارتفع في الدنيا والآخرة درجات، والحرمان والعذاب لمن عطل سمعه وفهمه عن القرآن فخسر نعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

المطلب الرابع: فهم النص القرآني وفق مراحل وأسباب نزوله:

من الضوابط الهامة لتدبر القرآن الكريم أن يفهم القارئ معنى النص القرآني وفق مراحل نزوله وأسباب نزوله فمعرفة مراحل النزول يوضح معنى الآية القرآنية ويعين القارئ على تدبر أحكامها ومقاصدها يقول الميداني: "على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن ويبني فهمه على أساس تدرج التشريع حتى لا يقع في خطأ عند الاستدلال، فتتبع مراحل النزول يكشف للمتدبر الخطوات التربوية والتدرج في بناء الأمة الإسلامية لأن تلك النصوص تتناسب مع الحالة النفسية والاجتماعية لمن نزلت فيهم تلك النصوص، لذلك فإن مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه لدى المتدبر تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع بها بعض المفسرين فبعضهم قد يأتي بقصص مدني فيضعها شرحًا أو سببًا لنص مكي وبذلك يحمِّل النص القرآني ما لا يحمل، وقد يأتي بحادثة مكية فيجعلها سببًا لنزول نص مدني لا علاقة له بهذه الحادثة[1]، ومن وسائل التدبر تتبع أسباب نزول الآيات وإطالة النظر في أحوال من نزل القرآن في شأنهم وما صاحب ذلك من ظروف وملابسات ووقائع لذلك كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أوفر حظًا وأعظم نصيبًا في تدبر القرآن الكريم.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "إن الصحابة شاهدوا القرآن والأحوال التي اختصوا بها فحصل لهم الفهم التام والعلم الصحيح، ومن أراد العيش مع آيات القرآن فلينظر ما في القرآن من غايات وتطلعات وليفتش في نفسه عن واقع تلك التطلعات في حياته، وليتأمل وصف الله لتلك التطلعات فيمن باشرها من الأنبياء والصالحين قبله، فمن فعل ذلك فسيجد الحكمة البالغة وما ينشرح به صدره، وما يزيد معه يقينه، وسيدرك من المعاني ما لم يدركه من قبل"[2].

ويقول الأستاذ سيد قطب: "إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص وأعيان الذوات ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الواقع ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، لا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات ومن ثم تبقى قاعدة مثلاً لكل جيل، ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها وشهدوا أحداثها فإنه كان يزيدها بها خبرًا ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم

---

[1] قواعد التدبر الأمثل، ص52.

[2] قواعد التدبر الأمثل، ص151-152، ومقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص95.

أصحابها وأبطالها، ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج الساكنة في أعماق الصدور"(1).

إن النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب بل معد للعمل في كل وسط وبيئة بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى، ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير، فالقرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة وكفى إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث فإذا النص القرآني جديد يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ويجيب على السؤال الحائر ويفتي في المشكلة المعقدة ويكشف الطريق الخافي ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه وإلى الاطمئنان العميق وليس ذلك لغير القرآن(2).

إن معرفة سبب نزول الآية القرآنية يعين على تدبر معنى الآية وفهم المراد من النص القرآني ويلزم مع ذلك مراعاة القاعدة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" حيث تشير هذه القاعدة إلى عدم حصر الآيات بمن نزلت فيهم كحادثة الظهار واللعان وآية السرقة لأن اقتصار أحكام هذه الآيات على من نزلت فيهم يعطل أحكام التشريع ولا يعين على التدبر(3)، وبهذا يتبين لنا أثر فهم النص القرآني وفق مراحل نزوله وأسباب نزوله في تدبر القرآن الكريم وفهمه.

المطلب الخامس: فهم الأسرار البلاغية للغة القرآن:

فمن الضوابط المنهجية لفهم النص القرآني وتدبره وفهم مراد الله منه معرفة القارئ بالأسرار البلاغية للغة القرآن كالتقديم والتأخير والحذف والإطناب والإيجاز... وغيرها من الأساليب البلاغية التي اشتمل عليها القرآن الكريم فالقارئ المتدبر عليه أن يجيد هذه اللغة ويعلم معاني مفرداتها وأسرار تركيباتها يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب، وتفسير لا يضرر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله"(4)، وعلى هذا فمعرفة قواعد اللغة العربية، وسر فنونها، وضبط أصولها أساس في فهم القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣)، ويقول أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)، فعلى المتدبر أن يفرق بين معاني المفردات وعليه أن يعرف الاشتقاقات والمترادفات والفروق اللغوية (5)، هذا بالإضافة لمعرفة علم المعاني والبيان والبديع يقول الزركشي: "القرآن كله لم ينزله مُنزلُه تعالى إلا ليُعلمَ ويُفهم، لذلك خاطب به أولي الألباب الذين

---

(1) في ظلال القرآن، ج5، ص2835.

(2) انظر: المرجع السابق، ج5، ص2836.

(3) انظر: قواعد التدبر الأمثل، للميداني، ص203.

(4) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص15.

(5) انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص115.

يعقلون والذين يعلمون والذين يفقهون والذين يتفكرون"(1)، يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩)، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام مقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك (2).

ويتحدث الإمام ابن الجوزي عن حرص السلف الصالح على الجمع بين التلاوة والتدبر والفهم فيقول: "لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم كان الفهم لمعانيه أوفى لأن شرف العلم بشرف العلوم"(3)، وقد حرص السلف الصالح على تعلم القرآن الكريم وفهم معانيه فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)(4).

كما يجب على متدبر القرآن أن يتقن الأساليب البلاغية للقرآن الكريم كالاستعارة والكناية والمجاز والحذف واللف والنشر والتشبيه والإيجاز والمجاز والكناية وغيرها من الأساليب البيانية التي بدون العلم بها لا يفهم النص القرآني ولا يحصل التدبر وقد ذكر الزركشي اثنين وأربعين أسلوباً من أساليب القرآن الكريم البلاغية منها: "التوكيد والحذف والتقديم والتأخير ..."(5)، يقول تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١)، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، فكل من لفظه ومعناه فصيح وكله حق وصدق، وعدل وهدى، إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا(6).

لذلك تحدى الله ﷻ بهذا القرآن أهل الفصاحة والبلاغة والبيان فأعجز كبريائهم وهزم فصاحتهم وأفحم بلاغتهم كل ذلك بأسلوبه المتميز عن كل ما عرفه العرب من أساليب فكان القرآن معجزاً وسيبقى إلى يوم القيامة، ولقد ذكر الإمام القرطبي عشرة أوجه لإعجاز القرآن أذكر منها: النظم البديع، والأسلوب المخالف لكل أساليب العرب والجزالة والتناسب في جميع ما تضمنه ظاهرًا وباطنًا من غير اختلاف(7)، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ٨٢).

يقول الإمام الباقلاني وهو يتحدث عن أساليب القرآن البلاغية: "إنه بديع النظم، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه... واعلم أن هذا العلم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب"(8).

---

(1) البرهان في علوم القرآن، ج2، ص106.

(2) انظر: مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص110.

(3) زاد المسير في علم التفسير، ج1، ص3.

(4) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج4، ص154.

(5) انظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص397.

(6) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج1، ص58 بتصرف.

(7) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج1، ص73.

(8) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص37.

ومن أساليب القرآن الكريم أنه احتوى على أحسن طرق التعليم والتأثير وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه مثل ضرب الأمثال وذلك بتمثيل الأمور المعنوية بالمحسوسة ليصير القارئ كأنه يشاهد معانيها رأي العين وهذا من عناية البارئ بعباده ولطفه بهم (1)، ومن أساليب القرآن اختلاف أسلوبه وتنوعه في خطابه لخصوم الإسلام في العهدين المكي والمدني فعلى قارئ القرآن أن يتذوق هذه الأساليب المختلفة ويتدبرها ليستشعر كيف تعامل القرآن مع كفار مكة ومشركيها في العهد المكي وكيف تعامل مع المنافقين واليهود وأهل الكتاب في العهد المدني فعلى المتدبر أن يستفيد من كل هذه الأساليب في مخاطبة خصوم الإسلام وأعدائه (2)، فهذه بعض الأساليب اللغوية والبلاغية التي يجب على المتدبر أن يعلمها حتى يفهم مراد الله ويكون ممن يتلو القرآن حق تلاوته.

المطلب السادس: فهم موضوع السورة ومناسبات آياتها:

من الضوابط المنهجية لتدبر القرآن الكريم فهم القارئ لموضوع السورة القرآنية ومحورها فعلى القارئ أن يلحظ أن لكل سورة شخصية مميزة لها، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو وهذا طابع عام في سور القرآن جميعًا ولا يشذ عن هذه القاعدة طول السور أو قصرها(3).

ويجب على متدبر القرآن أن يكون متعايشاً مع علم المناسبات حتى يستطيع أن يستشعر الإعجاز البياني في التناسب بين الآيات في السورة الواحدة، أو المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها وفاتحة السورة وخاتمة السورة التي قبلها أو المناسبة بين سور القرآن الكريم وقد تحدث العلماء قديمًا وحديثًا عن أهمية علم المناسبات، وفي ذلك يقول الإمام الزركشي: "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"(4).

ويقول الإمام البقاعي: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها إلى الترتيب وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز"(5).

ويقول د. مصطفى مسلم: "وعن طريق هذا العلم يعرف منه علل وترتيب أجزاء القرآن الكريم وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال"(6).

ومن الضوابط الهامة في تدبر القرآن الكريم معرفة علاقة الفاصلة القرآنية بموضوع آيتها حيث يختم الله الآيات بأسمائه الحسنى ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم وهذه القاعدة لطيفة نافعة تدل على أن الشرع

---

(1) انظر: القواعد الحسان، للسعدي، ص76.

(2) انظر: القواعد الحسان، للسعدي، ص29.

(3) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج1، ص22-23.

(4) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج1، ص36.

(5) نظم الدرر، للبقاعي، ج1، ص11.

(6) مباحث في التفسير الموضوعي، ص58.

والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم(1).

المطلب السابع: تصور حال الدعوة عند نزول الآيات:

فمن الضوابط المنهجية للتدبر تصوير حال الدعوة عند نزول الآيات وما فيها من جهاد ودعوة وبذل ونفقة وتضحية ومواجهة للباطل فحينئذ ستتغير نظرية تعامل القارئ مع الألفاظ وتصبح في ذهنه حية متحركة، وهو يتصور أثرها على رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم فكم من سورة مكية قصيرة كانت بردًا وسلامًا على قلوب الصحابة وفتحًا لآفاق عظيمة في نفوسهم وهم يواجهون الجاهلية بظلمها وتهديدها ومكرها، وإن قلوبهم لتخفق فرحًا وسرورًا مع كل كلمة، وإن نفوسهم لتزيد إيمانًا ويقينًا مع كل آية على الرغم من قصرها يقول السعدي: "فالنظر في سياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول ﷺ وسيرته مع أصحابه وأعدائه من أعظم ما يعين على معرفة وفهم المراد منه"(2)، ويقول الميداني وهو يوضح أثر معرفة بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية: "على متدبر القرآن أن يضع في اعتباره لدى تدبر نص منه ملاحظة الأمور الآتية:

الأول: تصور العصر الإسلامي الأول.

الثاني: تصور الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كانوا عليها حين نزول الآيات.

الثالث: تصور الظرفين الزماني والمكاني.

فكثيراً ما يقع الباحث في معنى نص خطأ لأنه فهم النص وهو يقع في اعتباره واقع حال المجتمع الذي يعيش فيه والبيئة المحيطة به لا واقع حال المجتمع الذي نزل فيه النص، وتصور الظرفين الزماني والمكاني اللذين أنزلت فيهما الآيات يقدم للمتدبر نفعًا جليلًا ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة وأقرب إلى المراد(3).

كما يستفاد من تصور حال الدعوة عند نزول القرآن تأمل حال الصحابة وهم في بيوت مكة يتلون الآيات التي تصف كفار قريش ولنا أن نتخيل خفض أصواتهم وحذرهم الشديد وهم يقرؤون السور التي تتوعد وتتهكم على رموز الجاهلية مثل (سورة المسد، الهمزة، المدثر، وآخر سورة العلق وغيرها) وفي نفس الوقت يشعرون بالاستعلاء وعزة الإيمان، كذلك يمكن تصور الصحابة رضوان الله عليهم وهم يقرؤون السور المدنية التي ترسي قواعد التشريع لبناء المجتمع الإسلامي(4).

وبهذا يتبين لنا أثر تصوير حال الدعوة أثناء نزول القرآن في تدبر القرآن الكريم.

وأخيرًا بعد هذه الجولة في رحاب تدبر القرآن أقول: إن الحياة مع تدبر القرآن نعمة عظيمة لا يشعر بها إلا من تدبر القرآن وذاق نعمة التدبر فقراءة القرآن مع التدبر تبارك العمر وترفع الدرجات حيث يلمس المؤمن الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود حيث يعيش مع عالم الغيب والشهادة لا مع عالم الشهادة وحده.

---

(1) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص59.

(2) تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص12.

(3) انظر: قواعد التدبر الأمثل، ص 133، 134.

(4) انظر: تدبر القرآن، للسنيدي، ص61-62.

الخاتمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ... ثم أما بعد:

فهذه أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

1. موضوع تدبر القرآن من أهم الموضوعات التي غفل عنها المسلمون في هذا الزمان وترتب عليه تلاوة القرآن من غير فهم ولا عمل.
2. تنحصر معاني التدبر في اللغة في النظر في أول الكلام وآخره والتفكر في عاقبة الأمر.
3. من نظائر التدبر في السياق القرآني التبصر، والتفكر، والنظر والتأمل، والاعتبار.
4. المعنى الاصطلاحي للتدبر أعم وأشمل من المعنى اللغوي، فهي بمعنى تفهم معاني الكلام وألفاظه، والتفكر في عاقبة الشيء وما يصير إليه، والنظر في أدبار الأمور والتأمل فيها والتفكر في دلالات الكلم ومراميه البعيدة.
5. وردت لفظة التدبر والتي بمعنى التفكر والتأمل في السياق القرآني في أربعة آيات، آيتان مكيتان، وآيتان مدنيتان.
6. يجب على قارئ القرآن إذا أراد أن يتدبر كلام الله أن يبتعد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي؛ لأن المعاصي والذنوب تنكت في القلب نكتًا سوداء تحول دون التدبر والفهم وتبعد صاحبها عن العمل والتطبيق.
7. حامل القرآن ومتدبره هو حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيمًا لحق القرآن.
8. الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أدب من آداب تلاوة القرآن وتدبره، وهي تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة والشر الذي يمثله الشيطان.
9. ينبغي على القارئ المتدبر أن يكون خاشعًا في قراءته خاضعًا لربه ليستنير قلبه وتسكن جوارحه ويحصل تدبره.
10. التدبر يقتضي أن يطبق القرآن واقعًا في الحياة، وتطبيق المرء ما يقرأ من القرآن، وتجسيده في حياته وسلوكه دليل على أن القراءة قد صاحبها تدبر وفهم.
11. من آداب التدبر إخلاص التلاوة لله وترك المعاصي، والاستعاذة وخشوع القلب والجمع بين التلاوة والعمل.
12. من الضوابط المنهجية لتدبر القرآن حسن الترتيل والإنصات وترتيل القرآن بصوت حسن والعيش في رحاب القرآن، وفهم النص القرآني وفق مراحل وأسباب نزوله، وفهم أسرار اللغة، والقرآن البلاغية، وفهم موضوع السورة ومحورها ومناسبات آياتها، وتصوير حال الدعوة عند نزول الآيات القرآنية.
13. التدبر خير سبيل لنهضة الأمة من كبوتها وعودتها إلى مكانتها التي أرادها الله لها فالأمة ستنتصر على أعدائها حين تجمع بين التلاوة والتدبر والعمل.

التوصيات:

1. أوصي أبناء الأمة على معاهدة القرآن الكريم وقراءته بتدبر وتؤدة، وتجسيده واقعًا في الحياة والجمع بين التلاوة والتدبر والعمل.
2. أوصي طلاب وطالبات العلم بالاهتمام بموضوعات القرآن الكريم المختلفة خاصة الموضوعات المتعلقة بتلاوة القرآن من حيث فضل وآداب تلاوته مع التأكيد على ضرورة تدبره والعمل بما فيه.
3. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع:

1. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفكر- بيروت.
2. أسباب النزول، للواحدي، دار الفكر، بيروت.
3. إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف- مصر، ط2.
4. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق مصطفى عطا، ط1، دار الفكر.
5. التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، دار الفكر، بيروت.
6. التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس.
7. تدبر القرآن الكريم، سليمان بن عمر السنيدي، ط2، 1423هـ- 2002م.
8. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء الحافظ بن كثير القرشي الدمشقي، دار الفكر- بيروت.
9. التفسير الكبير (ومفاتيح الغيب)، للإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر- بيروت، لبنان.
10. تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
11. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الحديث- القاهرة.
12. الحلية، لأبي نعيم، دار الكتاب العربي- بيروت، ط4، 1405هـ.
13. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، دار الفكر- بيروت.
14. زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت.
15. شعب الإيمان للبيهقي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1400هـ.
16. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير- اليمامة، بيروت، ط3، 1407هـ- 1987م، تحقيق د. مصطفى البغا.
17. صحيح الجامع، دار ابن كثير، ط3، بيروت.
18. صحيح مسلم، مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي.
19. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر- بيروت.
20. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، 1383هـ- 1964م.
21. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 2000م.

22. فضائل القرآن، لابن كثير، دار الفكر- بيروت.
23. الفوائد، لابن القيم، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2.
24. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
25. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط1.
26. القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، ط1، 1402هـ - 1982م.
27. القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، ط1421هـ-1982م.
28. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.
29. لسان العرب، لابن منظور، دار الأنصار- بيروت.
30. مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار القلم- دمشق، ط1، 1989هـ.
31. مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، 1938هـ.
32. مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، 1392هـ.
33. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.
34. مسند الإمام أحمد، لأبي عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة- القاهرة.
35. مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد- الرياض، ط1409هـ.
36. مفتاح دار السعادة، لابن القيم، تحقيق سيد إبراهيم، وعلي محمد، دار زمزم.
37. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، دار الفكر- بيروت.
38. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، دار الفكر- بيروت.
39. نظم الدرر، برهان الدين أبي الحسن البقاعي، دار الكتب العلمية- بيروت.